ملامح التفكير العلمي عند الإمام الشافعي

د.يحيى محمد أبو جحجوح
أستاذ المناهج
وطرق تدريس العلوم المشارك
كلية التربية– جامعة الأقصى

د. محمد عطية عبد الرحيم
أستاذ المناهج
وطرق تدريس اللغة الانجليزية المساعد
كلية التربية – جامعة الأقصى

ملخص الدراسة

هدفت هذه الدراسة الكشف عن ملامح التفكير العلمي عند الإمام الشافعي، في جوانبه العقلية والمعرفية والأخلاقية والاجتماعية والشخصية. واتبع الباحثان أسلوب تحليل مضمون القصائد، التي كتبها الإمام الشافعي رضي الله عنه في ديوانه الشهير. وكشفت هذه الدراسة عن مجموعة متنوعة من ملامح التفكير العلمي في شعر الإمام الشافعي، مثل: استخدام الأدلة والبراهين، والاستدلال العقلي، واستخدام المنطق العقلي، واتباع القياس، والاعتقاد بأن لعقل الإنسان حدود، والاعتقاد بأن الأسباب تؤدي إلى نتائج، والتأمل، والتثبت والتحقق، والتوقف عند حدود العلم، ورفض الأفكار غير العلمية، وعدم الركون إلى الظن، والموضوعية، والنسبية، وتدوين العلوم، وتراكمية المعرفة العلمية، وتطبيقها، والعلم مكتسب، والعلم بحاجة إلى الدعم، والعلم يحتاج لوقت طويل، وطلب العلم من مصادره، والعلم ينتج سلوكا حسنا، والاعتراف بفضل العلماء الآخرين، والبعد عن الذم والشتم، وتجنب الجدل، وتجنب الرياء، والخضوع للحق، والتذلل لمن يُتَعلَّمُ منه، والصدق، ونشر العلم، ومناقشة آراء الآخرين، وبذل العلم لمن يستحقه، وكثير من الخصائص الأخرى.

Alshafai's Features of scientific Thinking

The research aimed at identifying features of Al shafai's scientific thinking with all its aspects whether intellectual، cognitive، ethical، social، or personal. The two researchers adopted the content analysis approach to analyze the poems he wrote and were collected in his famous collection of poems. The study uncovered the presence of various features of scientific thinking such as: using evidence، inference، using logic، analogy، belief in limitations of human mind، belief that causes lead to effect، reflection، verifying، belief that science has limits، rejection of non scientific notions، avoiding uncertainty، objectivity، relativity، accumulation of scientific knowledge، application، knowledge is earned، science needs sponsoring and long time، seeking science form its appropriate resources، science is accompanied by good behavior، recognition of other scientists' contributions، shunning reviling، shunning argumentations، approving the truth،respect to who one gets knowledge from، truthfulness، etc.

المقدمة

الإمام الشافعي هو محمد بن إدريس بن شافع الهاشمي، القرشي، ويكنى بأبي عبد الله وهو أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد في ١٥٠ هـ وتوفي في ٢٠٤هـ ويقابله في التقويم الميلادي ٧٦٧ – ٨٢٠م، أي عاش ما يقارب ٥٣ عاماً. ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ودفن في القاهرة وقبره لا زال يزار هناك.

أما عن آثاره العلمية فقد كان لها أثر بالغ في معاصريه وفي من جاءوا بعده لدرجة دفعت الإمام أحمد بن حنبل أن يقول: (ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا و للشافعي في رقبته منه).

وللشافعي ديوان جمعت فيه أشعاره وأول من جمع أشعار الشافعي في كتاب مستقل أحمد العجمي المتوفى سنة ١٦٢٢هـ.

ثم جاء بعد العجمي محمد مصطفى الشاذلي، ثم ظهر ديوان الشافعي بعد أن جمعه محمد إبراهيم هيبة عام ١٣٢٩هـ وطبع في مصر. وأخيراً قام عبد الرحمن المصطاوي بجمعه وتحقيقه وكتابة مقدمة له وهذه النسخة هي التي استخدمت في التحليل (المصطاوي، ٢٠٠٥).

ومما يلفت النظر بأن الديوان لم يدرس فيه منهج التفكير العلمي حتى الآن، وهذا مما دفع الباحثين للقيام بهذه المحاولة لسد الفراغ وإحياءً لسيرة هذا العالم الجليل.

ليس من المبالغة في شيء القول إن حياة الإنسان تعج بالمواقف الحياتية التي تتطلب إخضاعها إلى التحليل العلمي السليم للوصول إلى قرارات صحيحة حتى تكون النتائج مرضية وتحقق المراد؛ لأنه في غياب محاكمة الأشياء والمواقف والموضوعات لمنهجية التفكير العلمي يسود الجهل وتسيطر الخرافات، وتنحط الحياة، ويصيبها الركود، وينتشر الظلام، وتندثر الحضارات.

إن منهج التفكير العلمي يعتمد على أن لكل ظاهرة سبب يكمن خلفها، وأن إعمال العقل في حدوده وضمن إمكاناته هو السبيل الوحيد لإخضاع الظواهر الطبيعية للدرس والتحليل بقصد الفهم والتنبؤ كي يمكن للإنسان السيطرة والإفادة من الطبيعة، وعدم تركها تتغول عليه. وكثيرة هي تلك الآيات القرآنية التي تحض على إعمال العقل والإفادة منه، وهذا يذكر بالآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: الآية ٢٨).

ويعد موضوع التفكير العلمي أحد المجالات الرئيسة في علوم عديدة: في المناهج وطرق التدريس، حيث تعد من الأهداف الأساسية للمناهج المختلفة التي تمثل الجانب الوجداني فيها، وعلم النفس، الذي يعتبرها إحدى مكونات الشخصية المهمة، التي تشكل وجدانه، وتوجه سلوكه، وأصول التربية، التي تعد إحدى جوانب اهتمامه، وعلم الاجتماع، الذي ينظر إليها بمثابة توازن للمجتمع، وضوابط للتغيرات التي قد تحدث فيه، وموجهات لسلوك أفراده.

ولقد أجريت العديد من الدراسات التي تناولت موضوع الأخلاقيات بشكلٍ عامٍ والعلم والدراسة العلمية على وجه الخصوص، فلقد حدد النفيعي (١٩٩٦) أخلاقيات المتعلم وآدابه السلوكية العامة كما تبدو في فكر عشرة من المفكرين المسلمين، وهذه الأخلاقيات هي: استغلال الوقت للتزود من العلم، والاستمرارية في النمو المعرفي، وبذل الجهد، والاهتمام بالأخلاق الفاضلة، ومجاهدة النفس، وإخضاع سلوكياته للأخلاق الفاضلة، والارتباط بعلاقة خيّرة مع والديه، ومع أفراد مجتمعه، وحسن اختيار المعلم، وتوطيد العلاقة معه، وحسن اختيار الزملاء، وتوثيق العلاقة معهم، والتعاون معهم، وحسن اختيار المدرسة، وضرورة المحافظة على مرافقها العامة وتجهيزاتها، وحسن استخدامها، والاهتمام بأنشطتها، وقوة التدين.

وحددت دراسة عبد الكريم (٢٠٠٣) تسع قيم أخلاقية مرتبطة بأخلاقيات العلم، وهي: إعمال العقل والعلم فيما يفيد الإنسان ولا يضره، واحترام قدسية الحياة الإنسانية، وتقدير ذاتية الفرد وخصوصيته، وعدم تعريض الإنسان لاحتمالية الإصابة بأمراض، والحفاظ على النسيج الاجتماعي، وتغليب المصلحة العامة على المصالح الشخصية، وازدراء الأنانية والانتهازية والاتجار بالعلم على حساب الأخلاق، والحفاظ على هوية الإنسان وآدميته واحترامه، والإبقاء على التنوع البيولوجي للكائنات الحية.

وتناولت دراسة أبو شاويش (٢٠٠٤) القيم والآداب الإسلامية في شعر الشهيد إبراهيم المقادمة، وتوصلت إلى خمس قيم هي: الإيمان بالقضاء والقدر، وطلب الشهادة وشرف نيلها، والصبر والصلاة، والجهاد والثورة وتحدي الغاصبين، والدعوة إلى الاتحاد ورص الصفوف، وكذلك توصلت دراسة حمدان (٢٠٠٤) إلى خمس قيم هي: الصبر، والدعاء والمناجاة والتوجه إلى الله، والصوفية، والجهاد والاستشهاد، والصمود والتحدي، لدى الشاعر نفسه.

وهدفت دراسة أبو جحجوح (٢٠٠٦) الكشف عن القيم التربوية المتضمنة في نماذج من الشعر الفلسطيني، سواء أكانت: روحية، أم أخلاقية، أم اجتماعية، أم علمية، أم سياسية، أم بيئية، وتم اتباع تحليل مضمون القصائد، التي كتبها ثلاثة شعراء فلسطينيون معاصرون، وكشفت عن قيم الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر والقدر، وحسن الظن بالله تعالى، والتأسي بالرسول ﷺ، والرحمة، والتسامح، والصبر، وبر الوالدين، وازدراء العدو الصهيوني، ورقة القلب، والنهي عن المنكر، والتمسك بالأرض، والتكافل الاجتماعي، وصلة الأرحام، والاهتمام بقضايا الشعوب الأخرى، والتعاون، والاهتمام بالكائنات البرية، والهدوء البيئي.

وتعرفت دراسة مكي (٢٠٠٥) إلى أخلاقيات التعلم كما تبدو في أقوال الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل. واستخلصت خمسة عشر أدباً، وهي: إخلاص

النية لله تعالى في طلب العلم، وحسن اختيار المعلم، وتعظيمه، وهيبته إياه، وتواضعه له، وشكره، والاعتراف بفضله، والجد في الطلب، والمواظبة، والملازمة، وحذف العلائق والتفرغ للعلم، والإكثار من حمد الله وشكره كلما أدرك شيئاً من العلم، ومراعاة آداب المجلس، والعناية بالمظهر العام، والنظافة الشخصية.

وأشارت دراسة الترتوري (٢٠١٠) إلى الأخلاقيات التي يجب أن يلتزم بها الباحث عموماً والباحث المسلم خصوصاً، ومنها: مناقشة المخالف بأسلوب علمي، وأن يكون هدف الباحث الوصول إلى الحقيقة، وألا يتعصب لمذهبه، وأن يعتمد ما رجحه الدليل بصرف النظر عن قائله، والتقيد بالعبارات المهذبة في عرض الرأي المخالف ومناقشته، وتجنب الطعن أو التجريح أو الاستهزاء أو السخرية من الرأي المخالف أو تحقيره، والالتزام بتقديم الأدلة، وألا يكون ملتزماً في أمر من أموره بضد الدعوى التي يحاول إثباتها، وألا ينقض بعض كلام الباحث بعضه الآخر، وألا يطعن في أدلة المخالف من غير حجة، والتسليم بالقضايا المسلَّمة والمتفق عليها، وقبول النتائج التي يُتوصل إليها بالأدلة الصحيحة، وألا يبدأ الباحث من نقطة الصفر وأن يستفيد من جهود من سبقه.

وسعت دراسة أبو جحجوح (٢٠١١) إلى استنباط عمليات العلم الأساسية من بعض آيات القرآن الكريم، وكذلك استنباط عمليات العلم التكاملية، بالإضافة إلى استنباط بعض مهارات التفكير من القرآن الكريم. وبينت أن القرآن الكريم زاخر بعمليات العلم الأساسية والتكاملية ومهارات التفكير التي تعد الجانب الإجرائي للعلم التي عن طريقها يتم التوصل إلى الجانب المعرفي للعلم، ولقد اكتفت الدراسة الحالية بالتدليل على الجانب الإجرائي ببعض آيات كريمة مختارة من القرآن الكريم، ومن أمثلة عمليات العلم الأساسية التي تقصّت عنها وكشفتها في القرآن الكريم عمليات: الملاحظة، القياس، التصنيف، الاستدلال، الاستقراء، الاستنباط، التنبؤ، استخدام الأرقام، التواصل. ومن أمثلة عمليات العلم التكاملية: فرض الفروض، التفسير، التعريفات الإجرائية، ضبط المتغيرات، التجريب. كما توصلت إلى أن القرآن الكريم زاخر بمهارات تفكير متنوعة فمن مهارات التفكير الابتكاري المستنبطة من القرآن الكريم: الأصالة، والمرونة، والطلاقة، والحساسية للمشكلات، وإدراك التفاصيل. والتفكير في التفكير، والتفكير التأملي، بالإضافة إلى مهارات التفكير: التذكر، طرح الأسئلة، الانتقال من عدم الاتزان المعرفي إلى الاتزان المعرفي، المقارنة، الترتيب، التمثيل، التخيل، التلخيص، اتخاذ القرار.

يتبين من خلال عرض الدراسات السابقة مدى أهمية الاهتمام بجوانب العلم والتفكير العلمي وأخلاقياته ومهاراته، وضرورة القيام بدراسات تحليل المضمون التي تكشف عن الأفكار والملامح في الإنتاج الإنساني.

وإن العالم بأسره، والعالم الإسلامي والعربي، والمجتمع الفلسطيني في أمسّ الحاجة إلى التمسك بالعلم والتفكير العلمي، لا سيما في الظروف الراهنة التي يمر بها؛ لكي لا يظهر تناقض بين فئاته السياسية المختلفة والاتجاهات الفكرية السائدة ورؤاه المستقبلية بما ينعكس على المجتمع الإنساني كنظام متكامل يحقق غاية وجوده في الكون من عبادة الله تعالى والقيام بمتطلبات الخلافة في الأرض وإعمارها على الوجه الأحسن.

تحديد مشكلة الدراسة:

تتحدد مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس التالي:

ما **ملامح التفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟**

الذي يمكن تفريعه إلى الأسئلة التالية:

ما الملامح العقلية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

ما الملامح المعرفية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

ما الملامح الأخلاقية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

ما الملامح الاجتماعية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

ما الملامح الشخصية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن ملامح التفكير العلمي عند الإمام الشافعي، وتصنيفها إلى ملامح عقلية ومعرفية وأخلاقية واجتماعية وشخصية.

أهمية الدراسة:

– ترجع أهمية الدراسة الحالية إلى كونها تتناول موضوعاً مهماً، يركز على ملامح التفكير العلمي عند الإمام الشافعي كما انعكست في ديوانه الشعري الذي لم يدرس حتى الآن من هذه الزاوية على حدود معرفة الباحثين، بالإضافة إلى أنه يسلط الضوء على تراث التفكير العلمي لدى العلماء المسلمين، وهو جانب يستحق الدراسة والبحث.

– قد تفتح الدراسة الحالية آفاقاً أمام باحثين آخرين للغوص في نماذج أخرى من التفكير في آثار الشافعي وآثار العلماء المسلمين الآخرين.

– قد يشرع باحثون آخرون باستكمال مجال الدراسة الحالي عن طريق القيام ببحث منهج التفكير العلمي في آثار الشافعي الأخرى.

حدود الدراسة:

أجريت هذه الدراسة على القصائد التي كتبها الإمام الشافعي وجمعها عبد الرحمن المصطاوي في ديوان الإمام الشافعي وقامت بنشره دار المعرفة، والاقتصار على التحليل الكيفي.

منهج الدراسة:

اتبع الباحثان في هذه الدراسة المنهج الوصفي الذي يركز على وصف الظاهرة الحالية كما هي في الواقع دون تدخل الباحثين في ضبط متغيراتها، وعلى وجه التحديد، أسلوب تحليل المحتوى Content Analysis الذي يسعى إلى تحليل القصيدة الشعرية إلى عناصرها البسيطة، واستخلاص ملامح التفكير العلمي المتضمنة فيها، ومن ثَّم تصنيفها في فئات، والتعليق عليها.

أداة الدراسة:

استخدمت الدراسة الحالية أداة تحليل المحتوى:

التي اشتملت على: الهدف من عملية التحليل، عينة التحليل، وحدة التحليل وفئاته، ضوابط عملية التحليل؛ وذلك للكشف عن ملامح التفكير العلمي في شعر الإمام الشافعي.

١- **تحديد الهدف من التحليل:**

تهدف عملية تحليل المحتوى إلى الكشف عن ملامح التفكير العلمي عند الإمام الشافعي.

٣- **تحديد عينة التحليل:**

شملت عينة التحليل جميع القصائد الشعرية المتضمنة في ديوان الإمام الشافعي الشهير.

٤- **تحديد فئات التحليل:**

تم الاعتماد على فئات ملامح التفكير العلمي، وهي: الملامح العقلية، والملامح المعرفية، والملامح الأخلاقية، والملامح الاجتماعية، والملامح الشخصية؛ لكونها الأنسب لتحقيق أهدافه.

٥- **تحديد وحدة التحليل:**

اختيرت الفكرة الرئيسة التي يدور حولها بيت شعر واحد، أو شطره، أو عدة أبيات شعرية كوحدة للتحليل؛ نظراً لمناسبتها للهدف من عملية التحليل.

٦- **ضوابط عملية التحليل:**

أ- يتم التحليل في إطار فهم أبيات الشعر، والتعرف إلى مدلولها.

ب- يشمل جميع القصائد الشعرية في ديوان الإمام الشافعي.

ج- استثناء عناوين القصائد من التحليل، والتركيز على مضمون أبيات الشعر.

د- استبعاد الشروحات لبعض الأبيات الشعرية التي جاءت من جامع الديوان ومحققه.

هـ- التركيز على التحليل الكيفي للأبيات الشعرية، وعدم الغوص في غياهب التحليل الكمي.

٧- صدق عملية التحليل:

تم التأكد من صدق عملية التحليل عن طريق عرض أداة تحليل المحتوى على مجموعة من المحكمين ذوي الخبرة في تحليل المحتوى، الذين أبدوا توافقهم على عملية التحليل.

نتائج الدراسة:

أولاً- الإجابة عن السؤال الأول للدراسة الذي ينص على: ما الملامح العقلية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

تركز الملامح العقلية على استخدام العمليات العقلية و مهارات التفكير العليا حيث يكون إعمال العقل، وهو الطريق الرئيس في تحليل الظواهر و تفسيرها وعزو النتائج لأسبابها الحقيقية. وقد كشف التحليل عن للإمام الشافعي ﷺ الملامح العقلية التالية:

١- استخدام الأدلة والبراهين:

لما بلوت أخلائي وجدتهم *** كالدهر في الغدر لم يبقوا على أحد

إن غبت عنهم فشر الناس يشتمني *** وإن مرضت فخير الناس لم يعد

وإن رأوني بخير ساءهم فرحي *** وإن رأوني بشر سرهم نكدي (ص ٥٠).

يقول الإمام الشافعي بأن من حوله كانوا كالدهر في الغدر، بالتأكيد هذا حكم عام ولو وقف عنده الإمام لما أمكن تصديقه وأخذه على عواهنه، ولكنه كعالم بعد أن ذكر الحكم بررره و ذكر عليه شواهد، وهي أنه إن غاب عنهم شتموه، وإن مرض لم يعودوه، وإن هم كذلك رأوه بخير ساءهم ذلك وإن رأوا الشر يحيط به سرهم ذلك، فهذه كلها أدلة وشواهد تدعم الحكم الذي أصدره في البداية.

٢- الاستدلال العقلي:

وَلكِنَّني مِذرَب الأَصغَرينِ *** أَقيسُ بِما قَد مَضى ما غَبَر (ص ٦٤).

يقرر الإمام الشافعي خصلة من خصال العالم، وهو أنه ليس بإمعة، فالعالم لا يصح له أن يكون إمعة يتبع الآخرين بل هو من يجب أن ينقاد له الآخرون، يستخدم قدراته في القياس كي يحكم على الحاضر بما حدث في الماضي، وهذه خاصية علمية أصيلة أن يستخدم المرء الخبرات الماضية ويوظفها في فهمه لما يجري حوله من أحداث جارية. والقياس هنا بمعنى الاستنباط الذي هو إحدى عمليات الاستدلال العقلي الذي يراد به التوصل إلى المجهول الجزئي من المعلوم الكلي.

٣- المنطق:

ولا حُزْنٌ يَدُومُ و لا سُرُورٌ *** ولا بُؤْسٌ عليك و لا رَخَاءُ (ص ١٧).

كمثلِ ما الذَّهبِ الإبريز يُشْرِكُه***في لَوْنِهِ الصُّفْرُ، والتَّفْضِيلُ لِلذَّهَبِ (ص ٢٨).

لو شاءَ أن تصلى جهنم خالدا *** ما كانَ ألهمَ قلبكَ التوحيدا (ص ٤٥).

يستخدم الإمام الشافعي المنطق العقلي وهو أحد ملامح التفكير العلمي على الرد على من يظن أن الله سبحانه وتعالى لم يرد به خيرا. المنطق هنا هو أنه لو أراد الله شراً بالبشرية لما ألهمها التوحيد وهو منطق سليم ولا شك.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه *** هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته *** إن المحب لمن يحب مطيع (ص ٧٨).

يخاطب الإمام من يدّعي حب الله سبحانه وتعالى وهو في ذات الوقت يعصيه، وهذا أمر منكر في العقل البشري والخبرة الإنسانية حيث إن من يحب شخصا يطيعه ولا يعصيه، فلا تصالح بين إعلان الحب وإظهار العصيان وعدم الطاعة. ويستمر في قوله أنه لو كنت صادقا في حبك لله تعالى لأطعته حيث المحب يطيع من يحب، و دليل الحب هو طاعة المحبوب.

٤- **القياس:**

إذا ما كنت ذا قلب قنوع *** فأنت ومالك الدنيا سواء (ص ١٨).

وإن كان مثلى لا فضيلة عنده *** يقاس بطفل في الشوارع يلعب (ص ٢٣).

الأسد لولا فراق الأرض ما افترست***والسهم لولا فراق القوس لم يصب (ص ٢٨).

أما ترى الأُسدُ تُخشى وهي صامتة؟! *** والكلب يُخسى لعمري وهو نبّاحُ (ص ٤٢).

علَيَّ ثياب لو يُباع جميعها *** بِفَلْسٍ لكان الفَلْس منهن أكثرا

فيهن نفس لو تقاس بمثلها *** نفوس الورى كانت أجل وأخطرا

فما ضر نصل السيف إخلاق غمده *** إذا كان عضبا حيث إنفذته برا (ص ٥٤).

الدهر يومان ذا أمن وذا خطر *** والعيش عيشان ذا صفو وذا كدر

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف *** وتستقر بأقصى قاعه الدرر (ص ٥٧).

يقاس المرء بالمرء *** إذا ما هو ماشاه (ص ١٢٥).

صَدِيقٌ لَيْسَ يَنْفَعُ يَوْمَ بُؤْسٍ *** قَرِيبٌ مِنْ عَدُوٍّ في الْقِيَاسِ (ص ٦٨).

يقرر الإمام الشافعي بأن الصديق الذي لا ينفع في الشدة ويوم البؤس ليس صديقا بل هو قريب من العدو قياسا لعلة اشتراك كليهما في عدم المنفعة في وقت لزومها.

أعرض عن الجاهل السفيه *** فكل ما قال فهو فيه

ما ضر بحر الفرات يوماً *** إن خاض بعض الكلاب فيه (ص ١٢٩).

ينصح الإمام بالإعراض عن الجاهل السفيه لأن كل ما يقوله في الآخرين هو فيه وليس في الآخرين، ويضرب مثلاً، ويقيس قياسا جميلا وهو أن الفرات، وهو هنا رمز للعالم الصنديد، لا يضره شيء ولا يتأثر من خوض الكلاب فيه لأن هذا الخوض لا يؤثر في هذا النهر الجاري.

٥- للعقل حدود:

إذا وافق التقدير ما هو كائن *** تحير عقل المرء وهو لبيب (ص ٢٥).

لقد وهب الله سبحانه وتعالى الإنسان العقل ليساعده في حياته، وهو مناط التكليف، وهذا العقل أمده الله بالقدرة على فهم الوقائع المشاهدة وتحليلها وفي هذا الوضع لا حدود له، ولكن هناك أشياء بحكم تركيبة العقل البشرى لا يستطيع معرفة كنهها أو حل لغزها.

٦- الاعتقاد بأن الأسباب تؤدي إلى نتائج:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه *** وما تدري بما صنع الدعاءُ؟ (ص ١٨).

يقرر الإمام الشافعي بأن الموقف العلمي يوجب على الإنسان أن يعلم بأن الأسباب- وهي هنا الدعاء – ستؤدي إلى نتائج دونما شك.

وجوزي بالأمر الذي كان فاعلاً *** وصبَّ عليه الله سوط عذابهِ (ص ٣١).

هنا يقرر الشافعي بأن الجزاء الذي ينال الإنسان كان نتيجة عمله أو ما قام به وهو سبب كاف لحدوث النتيجة.

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ *** وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنٌ

ومنهم غني ومنهم فقير *** وكل بأعماله مرتهن (ص ١٢٣).

يقرر الإمام الشافعي بأن أعمال المرء هي سبب مباشر لتحديد مصيره أو ما يحدث له، وذلك طبعاً بمشيئة الله تعالى.

٧- التأمل:

وميز كلامك قبل الكلام *** فإن لكل كلام جواب (ص ٣١).

يدعو الإمام الشافعي إلى التأمل، وتدبر الكلام قبل النطق به، وهذه دون أدنى شك صفات العالم الرزين الذي يتأمل مسبقا ما يريد قوله. وفي المعنى نفسه يقول:

شاهد أن من تكهن أو نجم *** زاد على المقادير كاذب (ص ٣٢).

فيدعو إلى التأمل في حقيقة أن التكهن هو كذب لأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وهذا يعدل ما يسميه علماء التربية بالتخمين الأعمى الذي لا يستند إلى دليل. وفي المعنى نفسه أيضاً يقول:

تصفحت إخواني فكان أقلهم ***على كثرة الإخوان أهل ثقات (ص ٣٦).

هذا التصفح هو التأمل، حيث يقول الشافعي أنه تأمل وفكر وتدبر في إخوانه فوجد أن الأقلة منهم أهل ثقة.

إذا المشكلات تصدين لي *** كشفت حقائقها بالنظر

وإن برقت في مخيل السحاب ***عمياء لا يجتليها الفكر

مقنعة بغيوب الغيوم *** وضعت عليها حسام البصر (ص ٦٤).

يقول الإمام الشافعي أنه إذا اعترضته المشكلات العلمية المعضلة كشف غموضها بالنظر، أي التأمل والتدبر. وأنه أيضا يزيل الغموض بحسام البصر أي النظرة التحليلية العميقة.

رام نفعاً فضرّ من غير قصدٍ *** ومن البرِّ ما يكون عقوقاً

إذا رأيت شباب الحي قد نشأوا *** لا يحملون قلال الحبر والورقا

وَلَا تَرَاهُمْ لَدَى الْأَشْيَاخِ فِي حِلَقٍ يَعُونَ *** مِنْ صَالِحِ الْأَخْبَارِ مَا اتَّسَقَا

فَعدِّ عنهم ودعهم إنهم همجُ *** قد بدّلوا بعلو الهمة الحُمُقَا (ص ٨٣).

يدعو الإمام الشافعي إلى حث الأبناء على طلب العلم والجلوس في حلقه، والتدبر ودراسة أخبار السلف الصالح، وهذا التدبر هو طريق الوصول إلي العلم النافع.

٨- التثبت:

وأد زكاة الجاه واعلم بأنها *** كمثل زكاة المال تم نصابها (ص ٢٧).

يدعو الشافعي إلى التثبت والتيقن فقال: واعلم وهي دعوة للتيقن والتثبت وهو عكس التهور والتسرع في إصدار الأحكام العلمية العامة.

تبين زمانك ذا واقتصد *** فإن زمانك هذا عذاب (ص ٣١).

هنا يدعو الإمام إلى التحقق والتبين.

عالم أنَّ ما يكون وما كان *** قضاء من المهمين واجب (ص ٣٢).

بالذل قد وافيت بابك عالما *** أن التذلل عند بابك ينفع (ص ٧٦).

هنا يعلم الإمام الشافعي خاصية التأكد والتيقن، وهي خاصية علمية رصينة لا يجوز الابتعاد عنها، فالعالم يبني مواقفه على العلم اليقيني، وليس على أي شيء سواه.

٩- التوقف عند حدود العلم:

وحسبك عاراً أن تقل: عذر كاذب***وقولك: لم أعلم وذلك من الجهد (ص٤٨).

يحض الإمام الشافعي على قول لا أعلم في حالات الجهل بحكم أو مسألة حيث لا يجوز للعالم أن يصدر أحكاماً في أية مسألةٍ لا علم له بها؛ لأن في ذلك فسادٌ للحياة العلميةِ، ويضلل الناسَ؛ مما يترتب عليه شر مستطير. فبتدبر طبيب يعطي دواءً لمرضاهُ في أمراضٍ لا يعلم عنها شيء، حتماً ستكون النتيجة كارثية. وهنا توجد لطيفة أخرى، وهي أن على الإنسان أن يدرك قدراته ويتصرف وفقها، ولا يتعدى حدود ما تسمح له به قدراته.

١٠- رفض الأفكار غير العلمية:

من العوائق الخطيرة للتفكير العلمي الخرافات والأساطير، وهذا ما فطن إليه الإمام الشافعي، فقال:

خَبِّرًا عَنِّي المُنَجِّمَ أَنِّي *** كافِرٌ بِالَّذي قَضَتهُ الكَواكِبُ (ص ٣٢).

١١- عدم الركون إلى الظن:

حَسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ *** وَلَمْ تَخَف سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ (ص ٥٧).

الظن هو نقيض العلم اليقيني، فلا يمكن لعالم أن يتحدث للناس بأحكام ظنية لم يتوصل فيها إلى نتائج حاسمة، فالدواء لا يمكن استخدامه إلا بعد تجريبه على عينات تضمن حسن استخدامه. وأن القول بالظن والركون إليه لا يجوز، وهذا يذكر بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُون﴾ (يونس: ٣٦). وتحذير رسول الله ﷺ (إياكم والظن فإنه أكذب الحديث).

ثانياً- الإجابة عن السؤال الثاني للدراسة الذي ينص على: ما الملامح المعرفية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

تركز الملامح المعرفية على الإدراك وعملياته، وعلى كيفية إدراك الشخص للشيء أو الظاهرة محل الدراسة، وهي هنا تتعلق بكيفية إدراك الشافعي لماهية التفكير العلمي وخصائص المعرفة العلمية. أما الملامح المعرفية للتفكير العلمي عند الشافعي والتي أظهرها التحليل فهي كالآتي:

١- الموضوعية:

إِذَا حارَ أمرُكَ في مَعْنَيَيْنِ *** ولم تَدْرِ فيما الخَطَا والصَّوابُ

فدع ما هويت، فإن الهوى *** يقود النفوس إلى ما يعاب (ص ٣١).

يقرر الإمام الشافعي صادقاً بأن على المرء أن يتخذ الموقف الرصين، وهو أنه إذا كان يقف أمام مسألتين أو آمرين يحتار فيها فالأولى له في هذه الحالة ترك الهوى والتحيزات الشخصية لأن في ذلك ضلال وتدمير للعلم الذي كثيراً جاء بنتائج تعاكس ما قر في أذهان كثير من العوام على أنه حقيقة يجب ألا تناقش. لا شك في أن هذا يذكر بحادثة حرق عالم في العصور الوسطى لأنه تجرأ على تحيزات رجال الكنيسة.

ويقول في موطن آخر:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعاً ***في الدين بالرأي لم تبعث بها الرسل(ص ٩٣).

يقول الشافعي بأن الناس أحدثوا بدعا في الدين، أي أدخلوا في الدين ما ليس منه، مدفوعين بأهوائهم وتحيزاتهم، وهذا مما يفسد على الناس دينهم ودنياهم. وهنا يستدل على ضرورة التثبت من مصادر المعلومات التي يلجأ إليها الباحث والمفكر العلمي.

٢- النسبية:

تشير النسبية إلى أن كل شيء نسبي و ليس مطلقا في بقائه و ديمومته و قيمته.

ولا تجزع لحادثة الليالي *** فما لحوادث الدنيا بقاء (ص ١٧).

إن الشافعي يعلم الإنسان في هذا البيت بألا يجزع لحادثة الليالي، أي المصائب والأحزان و المكاره، فهذه كلها زائلة بزوال الدنيا ولا بقاء لها ولن تدوم. كذلك هي بعض الظواهر في هذه الدنيا.

٣- تدوين العلوم:

العلم صيد والكتابة قيده *** قيد صيودك بالجبال الواثقة (ص٨٣).

يقول الإمام الشافعي بأن تدوين العلوم هي الطريقة الصحيحة والمثلى للحفاظ على العلم والأفكار التي تتفلت إن لم تقيد.

٤- تراكمية المعرفة العلمية:

تعلّم كل يوم حرف علم *** تر الجهال كلهم حميرا (ص ٥٥).

إن المعرفة العلمية ليست وليدة اللحظة بل هي بناء علمي تراكمي منظم وصل الناس عبر الأجيال. هنا يقول الإمام إن على طالب العلم أن يوطن نفسه بأنه لن يتحصل على المعرفة العلمية بين ليلة وضحاها، بل هي بناء تراكمي يتم عبر الأيام بحيث يتعلم كل يوم عنصراً من عناصر المعرفة العلمية أو أكثر، سواء أكان ذلك العنصر حقيقة علمية أم مفهوماً علمياً أم تعميماً علمياً أم قانوناً علمياً أم نظرية علمية.

٥- تطبيق المعرفة:

أفادتني التجارب كل عز *** وهل عز أعز من القناعة (ص ٧٤).

يقرر الإمام الشافعي أنه استفاد من تجاربه الشخصية فالإنسان العاقل يفيد من تجاربه الشخصية، فالمعرفة تراكمية، والمعرفة السابقة تضيء الطريق أمام طلاب العلم، فإن من لا يفيد من تجاربه يذكر بقول رسول الله ﷺ:"لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين". هنا لطيفة أخرى و هي أن الإنسان لا بد أن يضع المعرفة النظرية لديه موضع تطبيق، أي الإفادة منها، إذ لا فائدة من معرفة لا تنعكس إيجابا على حياة المتعلم.

٦- العلم مكتسب وليس فطرياً:

تعلم فليسَ المرءُ يولدُ عالماً *** وَلَيْسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ (ص ٩٥).

يقرر الشافعي بأن المرء لا يولد عالما لأنه ببساطة لا يمكن لأحد أن يرث علمه عن أبيه كوراثته لصفاته البيولوجية والجسمية ووراثته لماله، ولكن العلم يكتسب.

العلم من فضله لمن خدمه *** إن يجعل الناس كلهم خدمه

مَعَ الْعِلْمِ فَاسْلُكْ حَيْثُ مَا سَلَكَ الْعِلْمُ *** وَعَنْهُ فَكَاشِفْ كُلَّ مَنْ عِنْدَهُ فَهْمُ (ص ١٠٥).

يقرر الإمام بأن العلم يرفع مكانة صاحبه لدرجة أنه يجعل الناس من حوله خدم لهذا العالم، ويضيف بأن على العالم وطالب العلم أن يسلك حيث سلك العالم، وأن ينشر العلم لكل من يفهمه ويفيده.

يقدر الكد تكتسب المعالي *** ومن طلب العلى سهر الليالي

ومن رام العلى من غير كد *** أضاع العمر في طلب المحال (ص ١٠٠).

يقرر الإمام أن المعالي، أي نيل العلوم لا يتحصل إلا بقدر كبير من الكد والجهد المبذول فيه، وأن على من يطلب العلا من غير كد يضيع عمره هباء في طلب شي لا يتحقق له، إذ لا يمكن لشخص أن يتحصل على العلم دون بذل الجهد وسهر الليالي.

تعلم يا فتى والعود رطب *** وطيفك لين والطبع قابل

فإن الجهل واضع كل عال *** وان العلم رافع كل خامل

فحسبك يا فتى شرفا وعزا *** سكوت الحاضرين وأنت قائل (ص ١٠١).

يحض الإمام الشافعي في هذه الأبيات طلاب العلم على طلبه وهم في ريعان شبابهم، لأن الشباب فيه القوه الذهنية والبدنية اللازمة لتحصيل العلوم والمعارف، ويساعد على استيعابها في البنيات العقلية للمتعلمين، ويكرر هنا أيضا بأن الجهل يحط من قيمة الناس وأن العلم يرفع من مكانة صاحبه.

٧- العلم بحاجة إلى دعم:

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة *** وصحبة أستاذ وطول زمان (ص ١٢٢).

يوضح الإمام الشافعي بأن العلم بحاجة إلى بلغة وهو الدعم المالي والمعنوي الذي بدونه لا يمكن لأحد أن يتحصل على العلم. هذا ما أدركه الشافعي منذ القدم. وفي الوقت الحالي تخصص الدول ميزانيات ضخمة للعلماء ليقوموا بأبحاثهم، ويقدر تقدم الدول بما تنفقه على البحث العلمي.

٨- العلم يحتاج لوقت طويل:

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة *** وصحبة أستاذ وطول زمان (ص ١٢٢).

هذه الخاصية ترتبط بخاصية أخرى من خصائص التفكير العلمي ألا وهي تراكمية المعرفة العلمية، فالعلم لا يكتسب على الفور بل يحتاج إلى تخصيص وقت طويل للحصول عليه، وهذا يرشد العلماء ألا يتعجلوا في الوصول إلى المكانة المرموقة للعلماء.

ولقد تزايد الاهتمام بموضوع غدارة الوقت من حيث أساليبه ومهاراته، نتيجة التطورات الحديثة في التكنولوجيا بمختلف فروعها في الاتصالات والمعلومات والتعليم والطفرات الاقتصادية وتضخم المعرفة العلمية مما ينعكس على أهداف العلم (أبو جحجوح، ١٤٣٢هـ).

٩- طلب العلم من مصادره:

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه *** ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد (ص ٤٧).

يدل الإمام الشافعي هنا على أن العلم يطلب من مصادره الصحيحة المتمثلة في العلماء، وليس من سواهم، فإن فعل طالب العلم غير ذلك وطلبه من غير أهله انحرف عن المقصد والغاية.

أكرم بمجلس فتية *** ريحانهم ورق السدور

صبوا أباريق الهوى *** بين القلوب على الصدور

جعلوا شرابهم الحديث *** وكأسهم أبدا تدور (ص ٦٥).

هنا يمدح الإمام الشافعي العلماء الذين خصصوا أوقاتهم وجدهم للحديث، وهو من أفضل أنواع العلم، إن هذا المدح يدل طلاب العلم على أخذ العلم من العلماء.

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلم *** وعنه فكاشف كل من عنده فهم

ففيه جلاء للقلوب من العمى *** وعون على الدين الذي أمره حتم (ص ١٠٥).

يحض الشافعي طلاب العلم على أن يدوروا مع العلم حيث دار وأن يجعلوا العلم هادياً لهم، فمن لا يهديه العلم ولا ينقاد له كان انقياده للجهل والجهلاء.

ثالثاً- الإجابة عن السؤال الثالث للدراسة الذي ينص على ما الملامح الأخلاقية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

الملامح الأخلاقية هي الضوابط الأخلاقية التي يجب أن تلازم التفكير العلمي لكي تقيه من الانزلاق إلى ما لا تحمد عقباه، فالعلم الذي لا يخضع للضوابط يصبح خطراً جداً على المجتمع وعلى البشرية جمعاء. أما الملامح الأخلاقية في التفكير العلمي عند الشافعي كما كشف عنها التحليل هي كالآتي:

١- العلم ينتج سلوكا حسنا:

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى *** وسيرته عدلاً وأخلاقه حسناً

فبشره أن الله أولاه نقمة *** يساء بها مثل الذي عبد الوثنا (ص ١١١).

يقرر الإمام الشافعي أن صون العلم واجب على العلماء وجوب صون الناس لأعراضهم ودمهم، وهذا المبدأ لصيق بالمبادئ الأخرى السابقة التي تم شرحها وذات العلاقة بإعطاء العلم لمن يستحق ومنعه عن الجهلاء.

ما تم حلم ولا علم بلا أدب *** ولا تجاهل في قوم حليمان

وما التجاهل إلا ثوب ذي دنس *** وليس يلبسه إلا سفيهان (ص ١١٧).

لا قيمة للعلم بدون أدب وخلق جميل، ولا يتجاهل حليمان أي عالمان، وأن التجاهل ثوب رث دنس لا يقبل ارتدائه إلا السفهاء.

٢- الاعتراف بفضل العلماء الآخرين:

لقد زان البلاد ومن *** عليها إمام المسلمين أبو حنيفة

بأحكام وآثار وفقه *** كآيات الزبور على الصحيفة

فما بالمشرقين له نظير *** ولا بالمغربين ولا بكوفة

فرحمة ربنا أبدا عليه *** مدى الأيام ما قرأت صحيفة (ص ٨١).

هنا يذكر الإمام الشافعي فضل عالم جليل هو رمز لاستخدام العقل في تحليل النص الشرعي سواء أكان قرآنا أم حديثا، فإن اعتراف عالم جليل بقدر الإمام الشافعي بمكانة عالم آخر، وإسهاماته في الحياة العلمية ليس غريبا على الإمام الشافعي، و هذا يذكر بقول رسول الله ﷺ:"من لا يشكر الناس لا يشكر الله". ويذكر أيضاً بقول رسول الله ﷺ:"أنزلوا الناس منازلهم".

فلا خير بمن ينك *** رُ ذا حق له الحقُ (ص ٨٤).

يأمر الإمام الشافعي بأن يؤدي الإنسان الحق لصاحبه، ويقرر أنه لا خير بمن ينكر حقوق الآخرين، وبالتأكيد من أهم هذه الحقوق اعتراف العالم بحقوق العلماء الآخرين، والإقرار بمساهماتهم وإنجازاتهم، وعدم نكرانها، وهذا يذكر بأن الدول الآن تقر قانوناً بحقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع حفاظاً على الحقوق المالية والعلمية للمبتكرين والعلماء. وفي ذات السياق، يعترف الإمام الشافعي بفضل الإمام أحمد رضي الله عنهما، فيقول:

قالوا يزورك أحمد وتزوره *** قلتُ: الفضائل لا تفارق منزلَه

إن زارني ففضله أو زُرتُه *** ففضلِه، فالفضل في الحالين له (ص ٩٣).

٣- البعد عن الذم والشتم:

وأَصْفَح عن سِباب النَّاس حِلْما *** وشرُّ الناس مَن يَهْوَى السِّبابا (ص ٢٢).

البعد عن الشتم و التسابب مأمور به عامة الناس وهو أكثر إلحاحا للعلماء فالشافعي يقرر هنا بأن يصفح عن سباب الناس مدفوعا بخاصية الحلم أي العقل والحكمة، ويؤكد بأن شر الناس من يعشق التسابب.

إذا سبني نذل تزايدت رفعة *** وما العيب إلا أن أكون مسابا (ص ٣٢).

يؤكد الشافعي، كعالم جليل يتصف بأخلاق العلماء، بأنه إذا سبه إنسان وضيع، ترفع عن الشتم، ويقول بأنه من العيب أن يشتم أحدا حتى إن شتمه.

أحب مكارم الأخلاق جهدي *** وأكره أن أعيب، وأن أعابا (ص ٢٢).

يقرر الإمام الشافعي بأن العالم يجب أن يحب مكارم الأخلاق ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يمقت أن يذمه الآخرون، أو أن يذمهم، هذه هي عدم اللجاجة في الخصومة الشخصية والعلمية.

قل بما شئت في سب عرضي *** فسكوتي عن اللئيم جواب (ص ٣٢).

يترفع الإمام الشافعي عن سب اللئيم الذي خاض في عرضه ويكتفي بالسكوت لأن فيه الجواب الكافي للئيم والسافل، هذا الموقف ينبع من موقف ديني إسلامي قوى في عقيدة الإمام النابعة من القرآن الذي وصف الحكماء والعلماء، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

قالوا: سكت وقد خوصمت، قلت لهم: *** أن الجواب لباب الشر مفتاح

الصمت عن جاهل أو أحمق شرف *** وفيه أيضا- لصون العرض إصلاح (ص ٤٢).

يحث الإمام الشافعي على السكوت وقت الخصومة مع الحمقى والجهال لأن في ذلك صلاح وصون لعرض العالم الرباني، فلا يجوز للعالم أن يلتفت لمثل هذه الصغائر والسفاهات.

فناظر من تناظر في سكون *** حليما لا تلح ولا تكابر

وإياك اللحوح ومن يرائي *** بأني قد غلبت ومن يفاخر

فإن الشر في جنبات هذا *** يمني بالتقاطع والتدابر (ص ٦٥).

في هذه الأبيات يحض الشافعي طلبة العلم على مناظرة أقرانهم، ولكن بالحلم وعدم الإلحاح والتفاخر والتكابر وينصحهم بالابتعاد عن المرائين الذي يفاخرون عندما يتغلبون على خصومهم؛ لأن في ذلك شر مستطير، ويقطع العلاقات الودية التي يجب أن تسود بين العلماء.

٤- تجنب الجدل:

إذا نطق السفيه فلا تجبه *** فخير من إجابته السكوت (ص ٣٤).

يقرر الإمام رضي الله عنه مبدأً وخاصية أخرى من خصائص العلماء الأجلاء وهى عدم جدل السفهاء لأنه لا نفع في ذلك، فلا العالم يقنع الجاهل ولا الجاهل يستفيد من العلم. والموقف السليم هو السكوت.

سكتُّ عن السفيهِ فظنَّ أني *** عييتُ عن الجواب و ما عييتُ (ص ٣٥).

يسكت الإمام على السفهاء لقناعته بعدم الفائدة من مجادلتهم وهذا السكوت يفهمه السفيه خطأً بأنه بسبب عدم وجود جواب لدى العالم.

عاشر بمعروف وسامح من اعتدى *** ودافع ولكن بالتي هي أحسن (ص ١١٤).

يأمر الشافعي بالمعاشرة بالمعروف ومسامحة المعتدى والدفع بالتي هي أحسن وهو بذلك يركن إلى فهم عميق للحديث"واتبع الحسنة السيئة تمحها وخالق الناس بخلق حسن".

٥- تجنب الرياء:

وإياك واللجوج ومن يرائي *** بأني قد غلبت ومن يفاخر (ص٦٥).

يأمر الإمام الشافعي بتجنب المراءاة والتفاخر، وكذلك يأمر بالابتعاد عن الرياء.

٦- الخضوع للحق:

متى ما تقد بالباطل الحق يأبه *** و إنّ قدت بالحق الرواسي تنقد (ص ٤٧).

هنا يدل الشافعي على أن الحق وهو صنو العلم هو الذي يقود الدنيا وهي تنقاد له أما الباطل فلا ينقاد له إلا الجاهلون. هذا الإذعان للحق والركون إليه من أهم سمات العلماء ومن أهم خصائص التفكير العلمي.

٧- الرزانة:

فساد كبير عالم متهتك *** وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين عظيمة *** لمن بهما في دينه يتمسك (ص ٩٠).

يقول الشافعي بأن العالم المتهتك غير الرزين، وفاسد الخلق يمثل فسادا كبيرا لا يفوقه فساد إلا فساد الجاهل المتنسك الذي يفتي في الدين بدون علم، وهذا يأتي في إطار ضرورة توافر الجانب الأخلاقي للعالم.

٨- التذلل لمن يُتَعلَّمُ منه:

تصبر على مرِّ الجفا من معلمٍ *** فإنَّ رسوبَ العلمِ في نفراتهِ

منْ لم يذق مرَّ التعلمِ ساعةً *** تجرَّعَ ذلَّ الجهل طولَ حياته (ص ٣٧)

يدعو الشافعي طلاب العلم إلى التصبر، وهو أعظم و أجل من الصبر؛ لأن الصبر طبيعي، أما التصبر فهو افتعال الصبر؛ لأنه بدون ذلك التصبر لا يتسنى لطالب العلم أن يتعلم من العلماء، وهنا يؤكد الشافعي على أن طالب العلم يجب عليه أن يتصبر على جفاء معلمه لأنه إن فعل ذلك تعلم، وإن نفد صبره لم يتحصل على شيء، وهنا إشارة إلى خاصية ارتباط العلم بالجانب القيمي والأخلاقي للمعلم والمتعلم.

٩- الصدق في القول:

وهل أحدٌ يصغي إلى عذرِ كاذبٍ؟! *** إذا قال لمْ تأبَ المقال قلوبُ (ص ٢٥).

وحسبك عاراً أن تقل: عذر كاذب*** وقولك: لم أعلم وذاك من الجهد (ص ٤٨).

في هذين البيتين يرشد الإمام الشافعي رضي الله عنه بألا يكذب الإنسان، وهذه من أخص خصائص العلم والتفكير العلمي، فلا يجوز للإنسان العادي ناهيك عن العالم أو طالب العلم أن يكذب لأن ذلك بلا شك لن يقع موقعاً حسنا من قلوب جمهوره وفئته المستهدفة ولن يصغي له أحد بتاتاً. فمثلاً إذا كان عالم يكذب في نتائج أبحاثه ولا يلتزم الصدق، فهل يمكن الركون إلى صحة نتائجه التي سترفضها الأبحاث التالية بدلا من أن تبنى على نتائجه.

رابعاً- الإجابة عن السؤال الرابع للدراسة الذي ينص على ما الملامح الاجتماعية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

الملامح الاجتماعية للتفكير العلمي هي المقاصد الاجتماعية للعلم والتعلم ونشر العلم بين الناس، فالعلم هدفه الأساسي خدمة المجتمع والإنسان وليس هدفاً في حد ذاته. هذا هو البعد الاجتماعي للتفكير العلمي. أما الملامح الاجتماعية للتفكير العلمي عند الشافعي كما أظهرها تحليل ديوانه فكانت كالآتي:

١- نشر العلم:

والعودُ لو لمْ تطبْ منه روائحه***لم يفرق الناسُ بين العودِ والحطبِ (ص ٢٨).

نشر العلم أمر ضروري ليعرفه العامة ويستفيدوا منه. وهذا ما أكد عليه في بيت آخر:

بَثَثْتُ مُفِيدًا وَاسْتَفَدْتُ وِدَادَهُمْ *** وَإِلَّا فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ (ص ١١٠).

٢- مناقشة آراء الآخرين:

لسانك هش بالنوال ولا أرى *** يمنك إن جاد اللسان تجود

أتاني عذر منك في غير كنهه *** كأنك عن برى بذلك تحيد (ص ٤٥).

هنا الشافعي يناقش عذر المعتذر، ولا يقبله على علاته، فهذا هو الموقف العلمي الأصيل الذي يقلب الأمور، ولا يقبلها دون مناقشة.

فناظر من تناظر في سكون حليما *** لا تلح ولا تكابر (ص ٦٥).

يدعو الشافعي العلماء إلى التناظر أي المناقشة وتبادل الرأي ولكن في سكون وحلم وأن يبتعدوا عن التكابر.

٣- بذل العلم لمن يستحقه:

ولا تظهرن الرأي من لا يريده *** فلا أنت محمودٌ، ولا الرأي نافعه (ص ٧٨).

ينهى الإمام الشافعي العلماء عن إظهار الرأي العلمي لمن لا يريده لأنه في هذه الحالة لا يحمد العالم ولا يفيد الآخر الرأيُ. فما الحاجة لإبداء الرأي في هذه الحالة؟

العلم ينهى أهله *** أن يمنعوه أهله

لعله يبذله *** لأهله، لعله (ص ٩٣).

يقرر الشافعي مبدأ علمياً، وهو مبدأ إنساني وحضاري، وهو أن العلم يمنح للعلماء، ومن يمنعه عمن هو بحاجة إليه فهو آثم، ويؤكد على أن العالم يتوجب عليه أن ينفع الآخرين بعلمه ولا يمنعهم إياه.

فَمَنْ حَوَى الْعِلْمَ ثُمَّ أَوْدَعَهُ *** بِجَهْلِهِ غَيْرَ أَهْلِهِ ظَلَمَهْ

وَكَانَ كَالْمُبْتَنِي الْبِنَاءَ إِذَا *** تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَهُ هَدَمَهْ (ص ١٠٥).

يقرر الإمام مبدأ آخر لصيق بالمبدأ السابق ذكره وهو أنه يتوجب على العلماء أن يعطوا علمهم لمن للعلم أهل، وإن فعل غير ذلك فإن هذا ظلم شديد للعلم والعلماء، فإن إعطاء العلم لغير أهله يشبه إعطاء الفاسد سلاحا فتاكا يمكن أن يستخدمه ضد نفسه وبني وطنه.

أأنثر درا بين سارحة النعم؟! *** وأنظم منثورا لراعية الغنم؟

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي *** ولا أنثر الدر النفيس على الغنم

وَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ *** وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

فإن فرج الله اللطيف بفضـله *** وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم

بثثت مفيدا واستفدت ودادهم *** وإلا فمكنون لدي ومُكْتتم (ص ١١٠).

يشير الإمام الشافعي في هذه الأبيات بأنه سيكتم علمه عن الجهلاء قدر طاقته فهو لا يستطيع أن ينثر الذهب على الغنم ويصف منح الجهال العلم بأنه مضيعة له ومنعه عمن يستحقونه ظلم.

٤- التعلم من خبرات الآخرين:

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم *** فخير تجارات الكرام اكتسابها (ص ٢٧).

في هذا البيت يدل الشافعي على الانتفاع من تجارب الآخرين لأنه من لم يستفد من تجارب الآخرين اضطر لأن يجرب كل شيء بنفسه، وهذا ضد الموقف العلمي الذي يتطلب الإفادة من تجارب الآخرين؛ حيث لا يعقل أن يجرب المرء بنفسه فقط؛ لأن ذلك يعني عدم البناء على ما قام به الآخرون وتجريب المجرب، وهذا بالتأكيد عمل غير علمي وغير إنساني أيضاً.

إِذَا مَا كُنْتَ ذَا فَضْلٍ وَعِلْمٍ *** بما اختلف الأوائلُ والأواخر

فناظر من تناظر في سكون *** حليما لا تلح ولا تكابر

يفيدك ما استفادا بلا امتنان *** من النكت اللطيفة والنوادر (ص ٦٥).

هذه دعوة للإلمام بعلم السابقين والمعاصرين والإفادة منها، وهي أيضاً دعوة لمناظرة العلماء لتبيان الحق ونشر العلم أيضاً، والشاهد هنا أن العالم يمكن له الإفادة من العلماء الآخرين حيث سيقدمون له الفائدة دونما امتنان.

٥- السعي لنفع الآخرين:

لكِنَّني أَسْعَى لأَنْفَعَ صَاحِبي *** وعارٌ على الشبَّعانِ إن جاعَ صاحبه (ص ٣٢).

العالم لا بد أن يسعى لنفع الآخرين؛ إذ ما فائدة علم يبقى حبيساً في صدر صاحبه، إنّ همّ العلماء الحق هو إفادة البشرية، والسعي لإسعادها، وهذا يذكر بالعقوبة المغلظة لمن يكتم علمه عن الناس.

٦- محاربة الجهل:

تعلم ما استطعت تكن أميرا *** ولا تك جاهلا تبقى أسيرا (ص ٥٥).

محاربة الجهل هي الوجه الآخر لطلب العلم والجد فيه، فطلب العلم هو محاربة للجهل، كالنور إذا بزغ زال الظلام. وهنا يحث على العلم قدر الاستطاعة وحسب القدرة، وبذلك يصل طالب العلم إلي مرتبة عليا، أما الركون إلى الجهل يجعل الإنسان في مرتبة سفلى.

إذا رأيت شباب الحي قد نشئوا *** لا ينقلون قلال الحبر والورقا

ولا تراهم لدى الأشياخ في حلق *** يعون من صالح الأخبار ما اتسقا

فعد عنهم ودعهم أنهم همج *** قد بدلوا بعلو الهمة الحمقا (ص ٨٣).

يقرر الإمام هنا أنه إذا انتشرت حالة الجهل بين الشباب وتكاسلوا في طلب العلم فعلى طالب العالم أن يبتعد عنهم؛ لأنهم جهال لا تحسن مصاحبتهم.

٧- محاربة الركود:

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة *** لملها الناس من عجم ومن عرب

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ*** إنْ سَاحَ طَابَ وَإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ (ص ٢٨).

يؤدي الركود إلى شلل الحياة العلمية والعقلية، وهو سبب كاف لإحداث عطل وتأخر في عجلة التقدم الحضاري الذي لا يحدث إلا إذا تم القضاء على الركود الذي هو صنو الموت والفناء. لذلك يعلم الإمام الإنسان بألا يركن إلي الركود، بل يتوجب عليه محاربته بلا هوادة، ويرسم صوره رائعة وهي، لو أن الشمس بقيت على حالها بازغة طوال الأيام لملها الناس من جميع الأجناس وأن ركود الماء يصيبه بالعفن ويفسده، وجريان الماء يجعله صالحا للشرب والطهارة. وهذا يذكر بالحكم الشرعي الذي لا يجوز الوضوء بالماء الراكد فقد أفسده الركود وتغير طعمه ولونه.

خامساً- الإجابة عن السؤال الخامس للدراسة الذي ينص على ما الملامح الشخصية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي؟

تتركز الملامح الشخصية للتفكير العلمي على الخصائص الشخصية للعالم حال طلبه للعلم. وتحليل ديوان الشعر كشف عن الملامح الشخصية للتفكير العلمي عند الشافعي فكانت كما يلي:

١- الاستمتاع بالتعلم:

لم أجد لذة السلامة حتى *** صرت للبيت والكتاب جليسا (ص ٦٦).

العالم أو طالب العلم يجب أن يجد لذة و متعة في درس العلم، وهذه اللذة هي التي تسمى الدافعية، فإن وجد العالم لذة في طالب العلم ترك كل شيء سواه، وأصبح طلب العلم مثيراً ذاتيا للدافعية، ويصبح العالم بدون حاجة إلى دافعية خارجية، هذه الدافعية هي التي تجعل العالم يتخذ الكتاب جليساً ومؤنساً. وهذا ما يشير إليه في موطن ثانٍ، حيث يقول:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي *** من وصل غانية وطيب عناق (ص ٨٧).

يقول الإمام: إن سهره في طلب العلم وتنقيح العلوم ألذ له من أي متعة من متع الدنيا، التي ينصرف إليها الآخرون. وهذا ما يشير إليه في موطن ثالث، حيث يقول:

وصرير أقلامي على صفحاتها *** أحلى من الدوكاء والعشاق

وتمايلي طربا لحل عويصة *** في الدرس أشهى من مدامة ساقِ (ص ٨٨).

فالكتابة بالأقلام على الصفحات من أجمل الأشياء التي يتعلق بها العلماء تعلق الآخرين بمتع أخرى، فهذه المتعة تمد السلوك الشاق بالطاقة وتجعله يستمر، وهو يشعر بمتعة في حل المشكلات العلمية. ولا شك أن العالم الذي يتصف بهذه الصفة وهذه الخاصية هو الذي يحقق الإنجازات ويتفوق على الآخرين، ولا يشعر بالملل و الضجر حال طلب العلم، وبذلك يتحول العمل الشاق إلى عمل جميل ولذيذ.

٢- التروي في إصدار الأحكام:

سهام الليل لا تخطى ولكن *** لها أمد وللأمد انقضاء (ص ١٨).

يدعو الإمام الشافعي إلى انتظار الوقت الملائم للوصول إلى النتائج المتوخاة وتحقيق الأهداف، فلا يجوز التعجل حتى في الحصول على نتائج الدعوات، وهذا يذكر بقول الرسول ﷺ: بأن الله يستجيب دعوة الداعي ما لم يتعجل.

سَلِيْمُ العِرْضِ مَنْ حَذِرَ الجَوَابا *** وَمَنْ دَارَى الرِّجَالَ فَقَدْ أَصَابا (ص ٣٠).

يقرر الإمام أن الجواب العلمي يجب أن يعطى بحذر، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع الإمكانات المحتملة.

٣- استمرارية التعلم:

خلقت العباد على ما علمت *** ففي العلم يجري الفتى والمسن (ص ١٢٣).

لا يوجد وقت محدد لطلب العلم، فالعلم يطلب في الشباب والشيخوخة على حد سواء، وهو ما يسمى الآن باستمرارية العلم طوال الحياة.

٤- فتح الآفاق:

سيفتح باب إذا سـد باب *** نعم وتهون الأمور الصعاب

وَيتَّسِعُ الحَالُ مِنْ بَعْدِ مَا *** تَضِيقُ المَذَاهِبُ فِيهَا الرِّحَابُ (ص ٣٠).

يبين الإمام الشافعي بأنه إذا سد باب فإن أبواباً أخرى ستفتح، وستهون الأمور الصعبة، ولا يبقى الحال على ما هو عليه.

٥- التواصل ومصاحبة العلماء:

وخالط رواة العلم واصحب خيارهم *** فصحبتهم نفع وخلطتهم غنم

ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم *** نجوم هدى ما مثلهم في الورى نجم (ص ١٠٦).

يحث الإمام الشافعي على الحرص على مصاحبة العلماء لما فيها من خير عميم؛ لأن صحبتهم نفع ومخالطتهم مغنم، وينهى عن البعد عنهم لأنهم نجوم تهدي الضال في صحراء الجهل.

وفي موطن ثانٍ يقول:

لعمري لئن ضيعت في شر بلدة *** فلست مضيعا بينهم غرر الحكم

فإن فرج الله اللطيف بلطفه *** وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

بثثت مفيدا واستفدت ودادهم *** وإلا فمخزون لدي ومكتتم (ص ١١٠).

أي إن ضيع في بلدة ما، فإنه لن يضيع إذا ما صاحب العلماء وأهل الحكمة، وعندما يجالسهم فسوف يناقشهم فيفيد ويستفيد منهم، ومن أفضل ما يفيد هو ودادهم، أي علاقته الحميمة بهم.

٦- السؤال:

سل المفتي المكي: هل في تزاور *** وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟ (ص ٤١).

يقرر الشافعي أن أداة العلم هنا هي السؤال، وحتى يستطيع طالب العلم الحصول على إجابة عن السؤال لا بد أن يوجهه لعالمٍ بالموضوع.

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم *** وعنه فسائل كل من عنده فهم (ص ١٠٥).

هنا أيضا يقرر الشافعي رضي الله عنه بأن السؤال مفتاح العلم، واستخدام السؤال كإستراتيجية للحصول على العلم النافع، وهذا يندرج ضمن استراتيجيات التعلم النشط، التي تحفز من قدرات المتعلم، وتنمي لديه روح المبادرة والمبادأة في التعلم، وتحرص على إيجابيته، ومساهمته في التعلم.

٧- الجد في طلب العلم:

سأضربُ في طُول البلاد وعرضها *** أنال مُرادي أو أموتُ غريباً (ص ٢١).

يقول الإمام الشافعي بأنه سيرتحل في طول البلاد وعرضها لينال مراده من العلم.

وفي موطنٍ آخر يقرر بأن الحركة الدءوبة في طلب العلم تنعشه بالضبط كالماء الذي إن ساح طاب، وإن وقف ركد وفسد، وفي هذا إشارة إلى خاصية أساسية من الخصائص العلم وهي الدينامية بمعنى أن العلم بناء تراكمي ينمو باطراد مع التفكير والبحث العلمي في جميع الأماكن.

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبِ *** مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ (ص ٢٧).

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ *** إنْ سَاحَ طَابَ وَإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ (ص ٢٨).

وقد تكرر هذا المعنى كثيراً من باب التأكيد عليه:

سيُفتَحُ بابٌ إذا سدّ باب *** نعم وتهون الأمور الصعاب

ويتسع الحال، من بعد ما *** تضيق المذاهب فيها الرحاب (ص ٣٠).

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِيْ طَلَبِ العُلا *** وسافِرْ ففي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ

تَفَرُّجُ هَمٍّ، واكتِسَابُ مَعِيْشَةٍ *** وَعِلْمٌ، وآدابٌ، وصُحْبَةُ مَاجِدِ (ص ٤٩).

يدعو الإمام الشافعي إلى الارتحال والسفر في طلب العلا فمن فوائد السفر تحصيل العلم، وهنا يمكن الاستدلال على ضرورة التنوع في مشارب العلم ومصادره، وعدم الاقتصار على منبعٍ واحد.

اعلم بأن العلم ليس يناله من همه في مطعم أو ملبس

إلا أخو العلم الذي يعني به في حالتيه: عاريا أو مكتس

فاجعلْ لنفسِكَ منه حظاً وافراً *** واهجرْ له طيب الرقاد وعبسِ (ص ٦٧).

يطالب الإمام الشافعي بأن ينال الإنسان من العلم حظاً وافراً وأن يهجر له راحة النوم طيب الرقاد.

وأبيت سهران الدجى وتبيته *** نوما و تبغي بعد ذاك لحاقي؟! (ص ٨٨).

يقرر الشافعي بأنه يبيت يسهر الليالي المظلمة في طلب العلم.

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنيبك عن تفصلها بيان:

ذَكَاءٌ وحِرْصٌ واجْتِهَادٌ وبُلْغَةٌ *** وصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وطُولِ زَمَانِ! (ص ١٢٢).

يقرر الشافعي بأن الحصول على العلم يحتاج إلي ستة أشياء منها الاجتهاد في طلب العلم، وهنا تظهر خاصية للعلم، وهي التكاملية بين التفكير السليم والدافعية نحو التعلم وتحديد الهدف منذ البداية والتعاون علي الخير مع الآخرين والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم وانتقاء ذوي الكفاءة في التعلم والتعلم المباشر والاستمرارية في التعلم.

سَأَطْلُبُ عِلْمًا أَوْ أَمُوتُ بِبَلْدَةٍ *** يَقِلُّ بِهَا هَطْلُ الدُّمُوعِ عَلَى قَبْرِي

وَلَيْسَ اكْتِسَابُ الْعِلْمِ يَا نَفْسُ فَاعْلَمِي *** بِمِيرَاثِ آبَاءٍ كِرَامٍ وَلا صِهْرِ

وَلَكِنَّ فَتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاغْتَدَى *** لِيَطْلُبَ عِلْمًا بِالتَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ

فَإِنْ نَالَ عِلْمًا عَاشَ فِي النَّاسِ مَاجِدًا*** وَإِنْ مَاتَ قَالَ النَّاسُ بَالَغَ فِي الْعُذْرِ
إِذَا هَجَعَ النُّوَامُ أَسْبَلْت عَبْرَتِي *** وَأَنْشَدْت بَيْتًا وَهُوَ مِنْ أَلْطَفِ الشَّعْرِ
أَلَيْسَ مِنْ الْخُسْرَانِ أَنَّ لَيَالِيًا *** تَمُرُّ بِلَا عِلْمٍ وَتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِي؟! (ص ٦٠)

يؤكد الإمام الشافعي على أنه سيطلب العلم في جميع البلدان، ويقرر أيضا بأن العلم لا يورث مع الجينات، فعلى الجميع بذل الجهود للحصول عليه، وأن أشجع الشجعان من الفتيان هو من خرج فجرا وعاد ليلا في طلب العلم والصبر والتجلد عليه. ومن فوائد العلم أنه إن عاش عيشة ماجدة وإن مات قبل عذره. ويصف الإمام بأنه يقوم في طلب العلم طوال الليل ويؤكد أن الأيام والليالي التي لا تنقضي في طلب العلم هي ليال تذهب سدى.

٨- الحفاظ على العلم:

العلم من فضله لمن خدمه إن يجعل الناس كلهم خدمه
فواجب صونه عليه كما *** يصون الناس عرضه ودمه (ص ١٠٥).

من الضروري أن يصون العالم علمه، ويحافظ عليه، فبقدر محافظته بقدر ما يبارك فيه الله تعالى وينميه.

٩- ضرب الأمثلة:

تختص الأمثال بأن لها طابع فكري وتسمو عن الكلام المألوف، وتعد خلاصة للتجارب والخبرات، وتتميز بجمال الأسلوب من إيجاز وملائمة، والتوجيه إلى فكرة أو تجربة صادقة، وسهولة الحفظ والتداول والشيوع، ومعالجة المواقف المختلفة وفقاً لما تتطلبه بجرأة ووضوح، والاشتمال على معارف شتى، والقدرة على تقريب المجردات وتوضيح الأفكار الصعبة للأفهام والربط مع الواقع المعاش.

ويقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ (الكهف: ٥٤). أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكّررنا الحجج والمواعظ ولكن طبيعة الإنسان الجدل والخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة (الصابوني، ١٩٩٣، ١٩٦).

ولا تَرْجُ السّماحةَ من بخيلٍ *** فما في النّار للظّمآن ماءُ (ص ١٨)

يرشد الإمام الشافعي بعدم رجاء الكرم من بخيل فهو بالضبط مثل النار للظمآن، وهل في النار ماء يطفئ عطش الظمآن؛ فإن طلب الكرم من البخيل يشبه طلب الماء من النار.

وهو هنا متأثراً بالقرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ

عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: ٧٠)

يزيد سفاهةً فأزيد حلْماً *** كعودٍ زاده الإحراق طيبا (ص ٢١).

يقول الإمام الشافعي: أنه يقابل سفاهة السفهاء بالحلم. فكلما زاد السفيه سفاهة زاد الإمام حلما، بالضبط كعود البخور الذي تنبعث رائحته عندما يحترق.

والناس يجمعهم شملٌ وبينهم *** في العقل فرقٌ و في الآداب والحسبِ

كمثلِ ماء الذَّهبِ الإبريز يُشْركُه *** في لَوْنِهِ الصُّفْرُ، والتَّفْضِيلُ لِلذَّهَبِ (ص ٢٨).

يقرر الإمام الشافعي بأن بين الناس شبه واختلاف، تشابهٌ في الأصل، ولكن يوجد اختلاف في العقل وفي الآداب والنسب، وهذا الفرق يشبه بالضبط حال الذهب الأصفر الذي يشاركه في خاصية الاصفرار معادن كثيرة ولكن الذهب يبقى هو الأفضل.

١٠- عدم الانخداع بالظاهر:

كمثل ما الذهب الإبريز يشركه *** في لونه الصفر والتفضيل للذهب (ص ٢٨).

يقول الشافعي بأنه لا ينبغي للعالم أن يتوقف عند حدود الظاهر أو أن ينخدع به، فالأمور تقاس بكنهها وحقيقتها وليس بظاهرها، وهنا يستدل على ضرورة عدم الاقتصار على وصف الظواهر العلمية كهدف من أهداف العلم، وإنما ينبغي اقترانه بتفسيرها والبحث عن أسباب حدوثها.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها *** فرجت وكنت أظنها لا تفرج (ص٣٩).

يقول الإمام الشافعي: يجب على المرء مرة أخرى ألا ينخدع بالظاهر، وهو يبشر إلى أنه إذا ضاقت الأشياء ولم ير المخرج فهذا هو الظاهر، ولكن فرج الله تعالى قريب وهو الحقيقة الساطعة. ويستدل من هذا القول مراحل الابتكار التي تتمثل في الاحتضان الفكري ثم يعقبها مرحلة الإشراق الذهني وتفتح الأفكار والوصول إلى الفكرة المطلوبة أو الحل المراد

لسانك هش بالنوال ولا أرى *** يمنك إن جاد اللسان تجود (ص ٤٥).

يقرر الإمام الشافعي بأن هناك فرق كبير بين القول باللسان وعمل الجنان، فلا يكفي أن يقول الإنسان بلسانه شيئا تكذبه أفعاه، فدليل الإيمان حسن العمل، وفي هذا إشارة إلى التكامل بين الجوانب النظرية والعملية للعلم. ويؤكد ذلك ببيت آخر:

إن الفقيه هو الفقيه بفعله *** ليس الفقيه بنطقه ومقاله (ص ١٠٠).

يقرر الشافعي مرة أخرى أن الفعل، وهو كنه الأشياء، أدل على الأشياء من الأقوال وهي ظاهر الأشياء. وهذا ما أثبته الدراسات النفسية بأننا إذا كنا نقف إزاء الأقوال والأفعال، فإننا يجب أن نحكم

على الأفعال لا على الأقوال، كشاهد ودليل على ما يدور في خلد المرء. فالفقيه ليس بالقول ولكن بالفعل. وإن هذا القول يدل على شخصية ذكية حكيمة بالغة الذكاء والحكمة.

١١- البعد عن المشتتات:

يتوجب على العالم أن يتفرغ للعلوم إن أراد تحقيق مراده بإسعاد البشرية وتقديم العون اللازم لبني أمته ولا ينبغي له وللآخرين أيضاً أن يشغلوه بأشياء تافهة أو ثانوية تصرفه عن واجبه الأساسي، وهو الاشتغال بالعلم النافع. وتنبهت الدول إلي هذا الأمر فقدمت العون السخي للعلماء، والدعم في جميع المجالات حتى يتفرغوا لطلب العلم والتفوق فيه.

لما عفوت ولم أحقد على أحد *** أرحت نفسي من غم العداوات (ص ٣٦).

هنا يقرر الشافعي بأنه كعالم جليل يعفو ولا يحقد على أحد، وهو بذلك يريح نفسه من الانشغال بهذه العواطف والانفعالات الهدامة التي لو ملأت على العالم صدره لما بقى له طاقة نفسية وعقلية للتفرغ لطلب العلم، وانشغل عن العلم وطلبه.

ولا تخطر هموم غد ببالي *** فإن غداً له رزق جديد (ص ٤٦).

وهو هنا يقرر أيضاً بأنه لا ينشغل بحاجات الغد وهمومه، فهو كعالم مسلم لا ينشغل برزق غد؛ حيث إنه في يد الله تعالى الذي تكفل به؛ ولذلك هو يتفرغ للعلم وطلبه.

اعلم بأن العلم ليس يناله *** من همه في مطعم أو ملبس

إلا أخو العلم الذي يعنى به *** واهجر له طيب الرقاد وعبس (ص ٦٧).

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعِ سُوءَ حِفْظِي *** فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المعَاصي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ *** ونورُ الله لا يؤتى لعاصي (ص ٧٠).

ولا ينال العلم إلا فتى *** خال من الأفكار والشغل

لو أن لقمان الحكيم الذي *** سارت به الركبان بالفضل

بلى بفقر وعيال لما *** فرق بين التبن والبقل (ص ٩٩).

١٢- الاستفادة من الخبرات المباشرة:

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم *** سوى من غدا والبخل ملء إهابة

وجربت أبناء الزمان فلم أجد *** سوى غادر والغدر ملء ثيابه (ص ٢٩).

يستدل من هذين البيتين إرشاد الإمام الشافعي رضي الله عنه بضرورة التعلم بالخبرات المباشرة والاستفادة من التجريب. وهذا ما يظهر في معنيين مشابهين:

فكله إلى صرف الليالي فإنها *** ستبدي له ما لم يكن في حسابه (ص ٣٠).

لما بلوت أخلائي وجدتهم *** كالدهر في الغدر لم يبقوا على أحد (ص ٥٠).

يقول الإمام الشافعي: بأنه عندما اختبر وجرب أصحابه وجدهم يغدرون، فهو هنا لم يحكم عليهم بالظن بل بالتجربة والاختبار اللذان هما أدق وسائل الحصول على المعرفة العلمية الصحيحة.

وَلَقَدْ بَلَوْتُكَ وَابْتَلَيْتَ خَلِيقَتِي *** وَلَقَدْ كَفَاكَ مُعَلِّمِي تَعْلِيمِي (ص ١٠٩).

يقرر الإمام الشافعي هنا مرة أخرى مبدأ الاختبار للتثبت من صدق الأحكام التي يريد الوصول إليها.

خلاصة بأهم النتائج:

توصلت الدراسة إلى مجموعة من ملامح التفكير العلمي لدى الإمام الشافعي كما تظهر وتتضمن في شعره، وهذه الملامح تتمثل في:

الملامح العقلية للتفكير العلمي عند الإمام الشافعي: من استخدام الأدلة والبراهين في دعم الحكم الشخصي الذي أصدره في البداية، والاستدلال العقلي واستخدام قدراته في القياس كي يحكم على الحاضر بما حدث في الماضي، واستخدام المنطق العقلي في الرد على المخالفين، واتباع القياس في الحكم على بعض المسائل والقضايا، والاعتقاد بأن لعقل الإنسان حدود لا يستطيع تخطيها، والاعتقاد بأن الأسباب تؤدي إلى نتائج، وضرورة التأمل والتفكر في الظواهر المختلفة، وضرورة التثبت والتحقق من الأمور، والتوقف عند حدود العلم، ورفض الأفكار غير العلمية، وعدم الركون إلى الظن. والملامح المعرفية للتفكير العلمي: كالموضوعية، والنسبية، وتدوين العلوم للحفاظ على العلم والأفكار المتناثرة، وتراكمية المعرفة العلمية، وتطبيقها، وأن العلم مكتسب وليس فطري، والعلم بحاجة إلى دعم مالي ومعنوي، وأن العلم يحتاج لوقت طويل للحصول عليه، وطلب العلم من مصادره. والملامح الأخلاقية للتفكير العلمي، مثل: العلم ينتج سلوكا حسنا فلا قيمة للعلم بدون أدب وخلق جميل، والاعتراف بفضل العلماء الآخرين، والبعد عن الذم والشتم، وتجنب الجدل، وتجنب الرياء، والخضوع للحق، والتذلل لمن يُتَعلَّمُ منه، والصدق في القول. والملامح الاجتماعية للتفكير العلمي: كنشر العلم، ومناقشة آراء الآخرين وتبادل الرأي في سكون وحلم والابتعاد عن التكبر، وبذل العلم لمن يستحقه، والتعلم من خبرات الآخرين، والإلمام بعلم السابقين والمعاصرين والإفادة منهم، والسعي لنفع الآخرين، فلا فائدة للعلم إن بقي حبيساً في صدر صاحبه، ومحاربة الجهل، ومحاربة الركود. والملامح الشخصية للتفكير العلمي: كالاستمتاع بالتعلم، والتروي في إصدار الأحكام، واستمرارية التعلم طوال الحياة، وفتح الآفاق، والتواصل ومصاحبة العلماء، واستخدام السؤال كإستراتيجية للحصول على العلم النافع، والجد في طلب العلم، والاجتهاد في طلب العلم، والتكاملية بين التفكير السليم والدافعية نحو التعلم وتحديد الهدف منذ البداية والتعاون علي الخير مع الآخرين والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم،

وانتقاء ذوي الكفاءة في التعلم، والتعلم المباشر، والاستمرارية في التعلم، والحفاظ على العلم، وضرب الأمثلة، والاستفادة من الخبرات المباشرة، والاستفادة من التجريب.

الاستنتاجات

يتضح من التحليل لقصائد الإمام الشافعي بأن التفكير العلمي لديه هو تفكير شمولي بمعنى أنه شمل جميع جوانب التفكير العلمي، مثل: الجوانب العقلية والمعرفية والأخلاقية والاجتماعية والشخصية. وهو بذلك سبق كل من أتوا بعده من علماء الغرب والذين يعتقد بأنهم اطلعوا بشكل أو بآخر على إنتاجه العلمي وتعلموا منه. كما يتضح بأن الإمام الشافعي تعرف بل مارس مبدأ التكاملية في التفكير العلمي والذي يركز على أن منهج التفكير العلمي هو منهج متكامل يشكل نظاماً وأن من يأخذ بطرف منه لا بد له من أن يأخذ بباقي عناصر النظام حتى يمكن أن يؤدي عمله إلى نتائج علمية سليمة. كذلك تنبه الإمام الشافعي إلى مبدأ الاستمرارية كخاصية من خصائص التفكير العلمي والذي يفيد بأن الإنسان يبدأ في التعلم منذ أن تلده أمه ويستمر في التعلم طوال الحياة، وهذا ما عرفه الغرب بعد قرابة ألف عام وسماه التعليم والتعلم المستمرين طوال الحياة.

إن هذا لا يصدر إلا عن شخصية عظيمة متفتحة الذهن تتقاد للإسلام العظيم، وعلى ذكاء بالغ عميق بزَّ به غيره. ومما لفت نظر الباحثين أيضاً أن الإمام الشافعي أخضع التفكير العلمي لأخلاق الإسلام العظيم، ولم يتركه جموحاً وجانحاً لا يحده عقل ولا أخلاق، كما أنه استخدم شعره لأغراض سامية، منها: نشر الأخلاق ونشر التفكير العلمي ودعوة الناس إلى الخير والانقياد للعلماء الأجلاء والتخلق بأخلاق الإسلام. كيف لا وهو الداعية إلى الله تعالى وصاحب المذهب الذي انتشر في كثير من أصقاع الدنيا.

توصيات الدراسة

في ضوء النتائج التي توصل إليها البحث الحالي؛ فإن الباحثين يوصيان بما يلي:

١- زيادة الاهتمام بتنمية التفكير العلمي لدى المعلمين والمتعلمين.

٢- ضرورة الاستمرار بالتأصيل للتفكير العلمي بملامحه وخصائصه وعناصره وأبعاده وعملياته ومهاراته من القرآن الكريم والسنة النبوية وسير أئمة الإسلام.

٣- بناء منظومة لملامح التفكير العلمي لدى الأئمة الثلاثة مالك وأبو حنيفة وابن حنبل بالإضافة إلى الشافعي رضي الله عنهم أجمعين.

٤- التأكيد على أهمية التفكير العلمي والالتزام به في جميع ميادين الحياة وللعلوم الدينية والدنيوية كافة.

٥- الاستفادة من أداة تحليل المحتوى في الكشف عن ملامح التفكير العلمي لدى أئمة وعلماء آخرين كابن تيمية وابن القيم والعز بن عبد السلام.

مصادر الدراسة ومراجعها

- القرآن الكريم.

- النووي، محي الدين (د. ت)."رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

- أبو جحجوح، يحيى (١٤٣٢هـ). مهارات إدارة وقت التدريس لدى معلمي العلوم بالمدارس الثانوية في محافظات غزة. مركز بحوث كلية التربية، جامعة الملك سعود.

- أبو جحجوح، يحيى (٢٠٠٦). القيم التربوية في نماذج من الشعر الفلسطيني المعاصر. مجلة جامعة الأقصى، عدد خاص، ج٢، يونيو، ٢٠٠٦، ١٢٦- ١٥١.

- أبو جحجوح، يحيى (٢٠١١). عمليات العلم ومهارات التفكير المستنبطة من القرآن الكريم وتطبيقاتها في تدريس العلوم. **مجلة الجامعة الإسلامية**- سلسلة الدراسات الإنسانية، (١٩)١، ٢٧٧- ٣٢٥.

- أبو شاويش، حماد (٢٠٠٤)."القيم والآداب الإسلامية في شعر الشهيد إبراهيم المقادمة، في منتدى أمجاد الثقافي (٢٠٠٤)."شعر الشهيد إبراهيم المقادمة مقاربات نقدية"، غزة: مكتبة آفاق.

- الترتوري، حسين (٢٠١٠). البحث العلمي- خطته وأصالته ونتائجه. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، (٢٠)، ٨١- ١١٥.

- الصابوني، محمد (١٩٩٣). صفوة التفاسير. القاهرة، دار التراث العربي.

- المصطاوي، عبد الرحمن (٢٠٠٥). ديوان الشافعي"الإمام الشافعي"،الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- النفيعي، مطلق (١٩٩٦). **آداب المعلم والمتعلم عند بعض المفكرين المسلمين**. رسالة ماجستير غير منشورة، مكة المكرمة، جامعة أم القرى.

- حمدان، عبد الرحيم (٢٠٠٤)."القيم الإسلامية في ديوان لا تسرقوا الشمس للشاعر الشهيد إبراهيم المقادمة، في منتدى أمجاد الثقافي (٢٠٠٤)."شعر الشهيد إبراهيم المقادمة مقاربات نقدية"، غزة: مكتبة آفاق.

- عبد الكريم، سعد (٢٠٠٣). فعالية برنامج مقترح في تعليم بعض موضوعات وقضايا الهندسة الوراثية والاستنساخ المثيرة للجدل في تنمية التحصيل والتفكير الناقد وبعض القيم المرتبطة بأخلاقيات علم الأحياء لدى الطلبة الهواة بالمرحلة الثانوية العامة بسلطنة عمان. المؤتمر العلمي السابع للجمعية المصرية للتربية العلمية: نحو تربية علمية أفضل، ٢٧- ٢٠٠٣/٧/٣٠، ١١٥-١٧٠.

- مكي، رحاب (٢٠٠٥). **آداب المعلم والمتعلم عند الأئمة الأربعة**. رسالة ماجستير غير منشورة، مكة المكرمة، جامعة أم القرى.